

إليزابيث سوزان كساب

الفكر العربي المعاصر: دراسة في النقد الثقافي المقارن

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢). ٥٤٣ ص.

مسعود ضاهر(*)

أستاذ التاريخ المعاصر، الجامعة اللبنانية.

الأوروبية والتاريخ السياسي والاجتماعي
والثقافي في أوروبا.

رُكّزت في أبحاثها النقدية على أهمية «فلسفة الثقافة» في مجال بناء الذات، والهوية، وتأكيد الشخصية المميّزة. فهمت الفلسفة على أنها، بالدرجة الأولى، فن توضيح الأسئلة ومتابعتها. وتوصلت إلى استنتاج مهم مفاده أن الدراسات المقارنة للنقاشات الغربية والعربية لم تساعد على كسر عزلة الخطاب العربي في عصر العولمة، الأمر الذي دفعها إلى دراسة الفكر النقدي العربي بجميع تجلياته التاريخية، والسياسية، والجندرية، والدينية، والفنية، وغيرها في مرحلة الاستقلال السياسي للدول العربية المستقلة أو بالأحرى مرحلة ما بعد الاستعمار.

بلورت الباحثة في كتابها هذا مقولات نظرية بالغة الأهمية تناولت موضوعات متخصصة ضمن حقبات متعاقبة طالت النهضة الثقافية العربية الأولى من منتصف

- ١ -

في عام ٢٠١٢ نشرت إليزابيث كساب دراسة شمولية على درجة عالية من الأصالة. صدر الكتاب عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بعنوان الفكر العربي المعاصر: دراسة في النقد الثقافي المقارن.

باحثة لبنانية متميّزة تدرّبت على مناهج الفلسفة الأوروبية أثناء إقامتها المطوّلة في أكثر من دولة أوروبية. مارست التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي جامعة بللمند في لبنان، وفي جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وكأستاذة زائرة في عدة جامعات أمريكية وأوروبية. شاركت في العديد من النقاشات العلمية حول الثقافة النقدية، ومناهجها، وطرق ممارستها. وتوصلت إلى استنتاجات مهمة حول جدلية العلاقة بين معظم النقاشات الفلسفية

والاقتصادية الضرورية ، وبناء المراكز العلمية والثقافية العصرية.

ثمة تساؤلات منهجية مهمة تناولتها الباحثة بكثير من العناية. فهل جاءت أزمنا الثقافية نتاج القمع السياسي أم أن ثقافتنا هي التي أنتجت هذه الأنظمة السياسية المتتالية؟ ولماذا فشلنا في الوصول إلى الوحدة العربية، وفي بناء الأنظمة الديمقراطية، وفي الدفاع عن القضية الفلسطينية؟

لم تتناول بالنقد موضوعات عربية إشكالية انطلاقاً من مقولات عربية فحسب تحت ستار الأصالة ورفض تقليد الغرب، بل عالجتها بالمقارنة بموضوعات عالمية مشابهة، واستخدمت في دراستها مناهج النقد العلمي الحديث المنتشرة في الغرب. فهناك موضوعات متشابهة في جميع دول العالم التي انتقلت من مرحلة الاستعمار القديم إلى بناء الدولة المستقلة في مرحلة ما بعد الاستعمار. فبعض الموضوعات العربية متقارب أحياناً إلى درجة التطابق مع موضوعات مشابهة في دول أخرى. والمقارنة بين دول عربية بدول آسيوية، أو أفريقية، أو في أمريكا اللاتينية في مرحلة ما بعد الاستعمار، مفيدة للغاية. كما أن تجارب تلك الدول في ظروف دولية مشابهة تقدم الدليل الملموس على نجاح بعضها في تجاوز مشكلات المرحلة الاستعمارية، وإقامة دول عصرية قادرة على مواجهة تحديات العولمة، في حين حافظت الأقطار العربية المستقلة على كثير من بناها التقليدية السابقة، واكتفت باستيراد مقولات ثقافية عصرية لتزرعها في تربة غير صالحة لنموها وتطورها. وما زالت أزمنا تتفاقم حتى الآن. وما زال المفكرون العرب يستعيدون معظم مقولات عصر

القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، والفكر النقدي بعد نكسة عام ١٩٦٧، وقرارات ماركسية ومعرفية ونفسية حول التراجع الثقافي والتجديد والأصالة والنقد في الدين الإسلامي، والنقد العلماني، وأفكار العرب في رؤية مقارنة، ودوافع النهضة الجديدة، والمطالبة بالحق في الحرية والحياة. وطالت أبحاثها النقدية الحقول المعرفية بأبعادها المسرحية، والقومية الإنسانية.

وحللت سمات الفكر الديني الماورائي، والأيدولوجيا، والتاريخانية، وجندرة النقد، والدعوة إلى الديمقراطية، وأزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، والتراث وتحديات المعاصرة. وناقشت القضايا النظرية دفاعاً عن حرية الفكر في عصر التكفير، والدعوة إلى لاهوت تحرر عربي مسيحي، ونقد الإسلام التقليدي، والنقد العلماني، ونقد الاحتكار الحضري للإسلام «الحقيقي»، ونقد مفهوم الهوية الجوهري والرومانسي، ونقد أسلمة المعرفة، ونقد النمط التوفيقي للتفكير، والعلمانية والديمقراطية والنقد الثقافي، والدعوة العلمانية إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان، والسمات المهيمنة الشائعة، والخصوصيات العربية، وغيرها.

- ٢ -

الموضوعات الأساسية للكتاب كثيرة وبالغة التنوع. وهي تتضمن قضايا فرعية تطال مسألة الهوية، والتجدد الثقافي، وأسباب الانحطاط الذي قاد إلى التخلف الراهن، واستشراف سبل العودة إلى النهوض مجدداً بعد القيام بالإصلاحات السياسية، والثقافية،

الفكرية، والهوية الثقافية، والكونية والمركزية الأوروبية، والرأسمالية والخصوصية، والنزعة الثقافية، والتغريب والتحديث والتقليد، والنزعة النسوية. وأبرزت بعض خصوصيات الثقافة العربية عبر تسليط الضوء على أشكال الميراث الثقافي، والدين والتحرر والسلطة، والأولويات المتغيرة.

وعالجت مشكلات الانتقال من الهوية إلى الديمقراطية، ومن الجوهرية إلى التمكين، ومن الأيديولوجيا إلى التفكير النقدي. وختمت دراستها بإبراز موجبات النهضة الجديدة، والمطالبة بالحق في الحرية والحياة. فأستلته النهضة العربية في مطلع القرن الحادي والعشرين تحمل هموماً إضافية عما كانت عليه في القرنين التاسع عشر والعشرين، والتي لم يتحقق منها الشيء الكثير.

وطرحت أسئلة مهمة تتناول واقع العرب اليوم. فأين موقع الثقافة العربية في عصر العولمة؟ وما هي الأسباب التي قادت إلى المأزق العربي الراهن؟ وإلى أي مدى شكّلت المجتمعات العربية عائقاً أمام التغيير؟ وما الذي يحدد العقلية العربية اليوم؟ وما هو دور المفكرين العرب في تطوير المجتمعات العربية باتجاه الحداثة السليمة؟ وهل كانت الحداثة المشوهة سبباً في البؤس العربي الراهن؟ وما هو الإرث الحقيقي المتبقي من النهضة الأولى؟

- ٣ -

ونبهت في خاتمة كتابها إلى أن الموضوعات الطاغية في الثقافة العربية السائدة اليوم يغلب عليها طابع الدعوة إلى معالجة الفقر المدقع في مجالات المعرفة المتنوعة، والحاجة

النهضة العربية الأولى، ويتمنون لو تحقق ولو جزء يسير منها بعد أن توغلت الأنظمة العربية الراهنة في التسلط والاستبداد، والتكفير، وقمع الحريات، وتهجير أجيال متلاحقة من أفضل النخب العلمية والثقافية والفنية العربية.

لم تكن مشكلات النقد والهوية الثقافية، إذن، مسائل عربية حصرية، بل موضوعات بحثية عامة أثار اهتمام جميع مثقفي الدول المستقلة في مرحلة ما بعد الاستعمار طوال القرن العشرين. وقد تميّزت تلك المرحلة من ممارسة الاستقلال السياسي من استمرار الهيمنة الخارجية، المباشرة وغير المباشرة. ونالت فلسفة التنمية الثقافية مكانة خاصة في تلك الحقبة نظراً إلى دورها المميز في إطلاق مقولات نقدية تعارض عودة الاستعمار، بكافة أشكاله، القديمة منها والجديدة، إلى الدول المستقلة في العالم الثالث.

لقد طرحت الباحثة أسئلة نقدية بالغة الأهمية تتعلق بالفكر العربي المعاصر مقارنة بالفكر الثقافي المهيم في عصر العولمة.

وتساءلت: كيف قارب النقد العربي المعاصر المشاكل الثقافية؟ وإلى أي مدى، ومن أي منطلق قام المفكرون النقادون العرب في فترة ما بعد نكسة ١٩٦٧ باعتبار الأزمات الثقافية أزمات سياسية؟ وكيف تم التعبير عن تلك الاهتمامات والمقاربات في النقاشات العربية مقارنة بتمثيلاتها في أفريقيا وأمريكا اللاتينية التي مرت بظروف تاريخية مشابهة لظروف المجتمعات العربية؟ وما هي طبيعة النقاشات العربية ما بعد الاستعمار وموقعها في الفكر العربي المعاصر؟

وحللت السمات المهيمنة بشأن الثقافة العربية في المرحلة الراهنة، وأبرزها الهوية

على مختلف الصعد السياسية والفكرية، وهي الشرط الضروري لإمكانية ممارسة التفكير الحرّ. فلا تحتاج الحداثة فقط إلى أفكار عن الإصلاح، بل إلى أسس اجتماعية واقتصادية أيضاً. وذلك يتطلب القيام بإصلاحات فورية وطويلة الأمد في مجالات التعليم، والسياسة، والاقتصاد، والثقافة. بيد أن الأسس الاجتماعية للتغيير الديمقراطي ما زالت هشة في جميع المجتمعات العربية لأن الأوضاع الاقتصادية فيها مأزومة ومؤسساتها الديمقراطية ضعيفة، وجامعاتها متعثرة، وجمعياتها هشة. وتكرر وسائل الإعلام العربية يومياً مصطلحات القمع، والفساد، والعجز، والإفلاس المزمّن، واليأس الشامل، والكآبة المتفشية بصورة عالية بين المثقفين، وارتفاع نسبة الأمية، والفجوة الواسعة جداً بين الأغنياء والفقراء، والكثافة السكانية الهائلة في ضواحي مدن الصفيح، والمناطق الريفية المتصحرة.

- ٤ -

بقي أن نشير إلى أن الباحثة تبنت مقولات فلسفة التنمية الثقافية في الأقطار العربية المستقلة عبر مقولات نظرية تدعو إلى استعادة الكرامة، والافتخار بالذات من دون الوقوع في تمجيدها، بل التعافي من كراهيتها، وتخطّي مشاعر اليأس، وامتلاك ثقافة خاصة، وهوية خاصة، وفلسفة خاصة. لكن العقبات التي تواجه الأصالة الثقافية كبيرة، واسترجاع التراث الذاتي بعد أن قام الآخرون بصياغته وتشويهه واستغلاله يتطلب موقفاً ثقافياً متقدماً باتجاه الحداثة السليمة التي باتت حاجة ملحة لجميع شعوب العالم. وذلك يتطلب امتلاك المعرفة الضرورية

الملحة إلى فكر نقدي صارم، وعدم التهرب من مواجهة الثقافة التقليدية التي أدت إلى تزايد التطرف الديني، وإخفاقات دولة ما بعد الاستعمار، والطلب المتزايد على الديمقراطية والمطالبة بحياة أفضل. فمشكلات التحديث في المجتمعات العربية ما زالت قائمة لأن تلك المجتمعات لم تنتج حداثة سليمة، ولم تتوصل إلى قطيعة حقيقية مع بعض طرق التفكير التقليدية. وكثيراً ما يخلط المفكّرون العرب بين الأيديولوجيا النضالية والعمل الفكري الصارم، ويسمحون لها بعرقلة النقد الفكري. وكثيراً ما تبدو الهشاشة واضحة في الالتزام الحزبي أو العقائدي. وهناك ندرة في إنتاج المعرفة العلمية في الوطن العربي، وخصوصاً في مجال المعرفة العلمية الدقيقة بالوطن العربي نفسه. يضاف إلى ذلك أن فشل التعليم في الأقطار العربية شكّل فضيحة ثقافية طوال مرحلة الاستقلال، الأمر الذي ساعد على توليد نزعة التعصب أو التطرف الديني، بسبب البطالة وعدم المساواة في المجالين السياسي والاجتماعي. فالوحدة الثقافية للوطن العربي سطحية لأن المعرفة الإمبريقية قليلة جداً بين أقطاره. لذا دخل العرب بشكل متزايد في عصر العولة في وقت ازدادت فيه العزلة بين أقطارهم ومجتمعاتهم.

وتناولت بالنقد النخب العربية لأنها ليست نقدية بصورة كافية، ولم تتخذ موقفاً واضحاً وشجاعاً بين المحافظة والحداثة. فوصف بعضهم العرب بأنهم «ظاهرة صوتية» لا تأثير لها في مجتمعاتها. أما ظاهرة الصعود المتزامن للحركات الإسلامية في موازاة الدعوة المتزايدة لتبني الديمقراطية السليمة، فنتج من الحاجة الماسة إلى الديمقراطية التي تعتبر ضرورة قصوى بالنسبة إلى الشعوب العربية،

فأسئلة النهضة العربية اليوم أشد قلقاً من أسئلة النهضة الأولى. لكن الشباب العربي لم يستسلم إلى الشعور بالعجز عن التغيير الديمقراطي، وأضحت الدعوة إلى الإصلاح الجذري اليوم أقوى في زمن الانتفاضات العربية التي تفجرت عام ٢٠١١ بحثاً عن المواطنة والمساواة في دولة ديمقراطية سليمة تقيم التوازن بين الأصالة والمعاصرة.

- ٥ -

ختاماً، قدمت إليزابيث كساب دراسة نقدية بالغة الأهمية، تناولت فيها قضايا الفكر العربي المعاصر في ضوء الثقافة المهيمنة في عصر العولمة، وحللت مقاربات النقد العربي المعاصر للمشكلات الثقافية العربية مقارنة بمثيلاتها في أفريقيا وأمريكا اللاتينية التي مرت بظروف تاريخية مشابهة لظروف المجتمعات العربية، وصاغت إجابات علمية رصينة في هذا الكتاب العلمي المهم، الموثق بشكل ممتاز، والذي تضمن أبحاثاً أصيلة منشورة بالعربية، والفرنسية، والإنكليزية، والألمانية. وهو يشكّل نقلة نوعية في مجال النقد الثقافي في مختلف جوانبه التاريخية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، وغيرها. فاستحقت عليه بكفاءة عالية جائزة الشيخ زايد للكتاب في مجال التنمية وبناء الدولة عن عام ٢٠١٣ □

لبناء الثقافة العصرية من دون السقوط في التغريب، وامتلاك الأدوات الفكرية المناسبة لمرحلة عصر العولمة. ولا تتم عملية التحرر الفكري من الاستعمار إلا بتعزيز دور اللغة الوطنية فيها. فإمكانيات تحويل التحرر الثقافي من الاستعمار إلى مشروع للعصرنة والتنوير متوفرة على أرض الواقع، لكن ذلك يتطلب تحليل مضمون التنوير ومفهوم النقد الملائم لبناء مجتمعات حديثة في مرحلة ما بعد الاستعمار.

وتكمن خطورة المرحلة الاستقلالية في أن المستعمر، قبل الرحيل وبعده، بقي مثلاً يحتذى لشعوب كانت خاضعة له، علماً أن إنهاء الاستعمار كان يستوجب التحرر منه، سواء في تقليده أو العداء المستمر له بعد رحيله. فإنهاه الاستعمار الثقافي يتطلب، بالدرجة الأولى، ثقافة عقلانية قادرة على إطلاق مرحلة التخلّص من التبعية.

فالنهضة الجديدة في مرحلة الاستقلال السياسي للأقطار العربية لم تحقق الآمال التي عقدت عليها. لذا انتشر النقد القاسي بعد الهزيمة إلى درجة الشعور بالعجز عن الحفاظ على الأصالة وبناء حداثة سليمة تحميها. وبدأ العرب في العقود الماضية وكأنهم يعيشون مرحلة الانسداد التاريخي بعد فشل مشروع التنوير الجديد في الوطن العربي.

وليس ما يشير إلى أن العرب يبدون الاستعداد الكافي للخروج من محنتهم.